دلالة الحجاج ومفهومه

الدكتور: بن الدين بخولة

جامعة الشلف ـ الجزائر

لا تكاد تخلو كتب التراث الإسلامي من تداول مصطلح الحجاج في عدة مجالات ومن هنا نتساءل عن الدلالات المختلفة للحجاج وألفاظه في القرآن الكريم، وهل هناك تمايز أو تداخل بين الحجاج ومجاله المفهومي. لذا سنحاول الوقوف على دلالة الحجاج لغة واصطلاحا ومدلول الحجاج في البلاغة الأرسطية الذي يحصر الحجاج في مجالين هما الجدل والخطابة، ثم نتناول مفهومه عند اللسانيين الغربيين وبخاصة عند المدرسة البلجيكية وآراء بيرلمان وتلميذه مايير، وكذا المدرسة الفرنسية وآراء ديكرو الذي يحصر الحجاج في بنية اللغة، وكلهم تمسكوا بالإرث الأرسطي إلى حد كبير.

لا تكاد تخلو كتب التراث الإسلامي من تداول مصطلح الحجاج في عدة مجالات. ومن ها نتساءل عن الدلالات المختلفة للحجاج، وهل هناك تمايز أو تداخل بين الحجاج ومجاله المفهومي.

ومن هنا سنحاول الوقوف على دلالة الحجاج لغة واصطلاحا ومدلول الحجاج في البلاغة الأرسطية الذي يحصر الحجاج في مجالين هما الجدل والخطابة، ثم نتناول مفهومه عند اللسانيين الغربيين وبخاصة عند المدرسة البلجيكية وآراء **بيرلمان** وتلميذه **مايير**، وكذا المدرسة

الفرنسية وآراء **ديكرو** الذي يحصر الحجاج في بنية اللغة، وكلهم تمسكوا بالإرث الأرسطي إلى حد كبير

ونتعرض في هذه المداخلة للفظ الحجاج من حيث دلالته اللغوية عند علماء اللغة قديما، ثم على مفهوم الحجاج في البلاغة الأرسطية معرجين إلى تأصيل مفهوم الحجاج في المدرستين البلجيكية والفرنسية.

الحجاج لغة

قال ابن منظور: " الحجاج القصد، حجَّ إلينا فلان أي قدم وحجَّه، يحجُّه حجًّا قصده ورجل محجوج؛ أي مقصود وقد حجَّ بنو فلان فلانا إذا أطالوا الاختلاف عليه[1] ويقول في موضع آخر الحجَّة البرهان، وقيل الحجَّة ما دفع به الخصم والحجَّة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، والتَّحاج، التّخاصم، وجمع الحجّة حُجج وحِجاج وحاجَّة محاجَّة وحجاجا نازعه الحجَّة، والحجّة الدَّليل والبرهان وهو رجل مِحجاج؛ أي جَدِل[2].

وعلى هذا يكون الحجاج النزاع والخصام بواسطة الأدلة، والبراهين والحجج فيكون مرادفا للجدل، فالجامع بين معني اللَّفظين هو المخاصمة والمنازعة مع أنَّ فعل حاجَّ لا يستعمل غالبا إلاَّ في معنى المخاصمة. وأنَّ الأغلب أنَّه يفيد الخصام بباطل[3]، والجدل يكون في الخير والشَّر.

والزمخشري حصر الحجاج في المخاصمة والمغالبة فصد الظفر، حيث يأتي كل من الحجاج والمحاجة بمعنى الخصومة قصد المغالبة وهذا ما ذهب إليه ابن فارس في قوله: "حاججت فلانا فحجَجته أي غلبته بالحجَّة[4].

والشيء الملاحظ أنَّ أصل الخصومة لا يستلزم عداوة بل مدارها أساسا على الاختلاف مع الطرف الآخر؛ لأنَّ دواعي الصراع تقتضي تصلبا في الرأي ما يدفع به إلى إقحام كل ما يملكه من الدلائل لكي يقحم به الخصم.

اصطلاحا:

قال أبو الوليد الباجي: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنَّه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال والأول تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا عُلم الصحيح من السقيم[5].فالحجاج علم له أركانه وطرائقه المميَّزة له وغايته معرفة الحقيقة والتمييز بين الحق والباطل.

أما حديثا فقد استعمل الحجاج ثلة من الدارسين العرب كـ (طه عبد الرحمن) في كتابه(اللسان والميزان أو التكوثر العقلي) الذي عقد فيه بابا كاملا سماه (الحجاج والخطاب) استعرض فيه أصناف الحجاج، فالحجاج في نظره هو الآلية التي يستعمل فيها المرسِل اللغة ويتجسَّد من خلالها الإقناع ومن ثم يكون الفهم والإفهام على حد قول الجاحظ والحجاج طريقة ناجعة في دراسة مختلفة الخطابات فـ (طه عبد الرحمن) يركز على المفهوم اللغوي للحجاج ويرى أنه له وجهين:

الأول هو القصد والثاني يتمثل في الغلبة بالحجة وهو لا يبتعد كثيرا عن تصور القدامى للحجاج، أما في كتابه (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام) فقد نظر إلى الحجاج نظرة شمولية حيث يقول: المرسل عندما يطالب غيره مشاركته اعتقاداته فإنَّ مطالبه لا تكتسي طابع الإكراه ولا تدرج على منهج القمع[6] وهنا تظهر خطورة الإمتاع ودوره في الإقناع حيث يقوم المرسل باستغلال هذا الإجراء في إذعان المتلقي.

ومن الذين كتبوا كذلك في الموضوع الحواس المسعودي الذي يرى أن الخطاب الحجاجي هو خطاب موجه وكل خطاب يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بعد حجاجي[7].

فالحجاج وسيلة من وسائل الإقناع يتوسل به المرسل للتأثير على المتلقي أو دحض آرائه أو تغيير سلوكه.

الحجاج في البلاغة الأرسطية

تعد البلاغة الأرسطية أساسا فلسفيا معرفيا لأغلبية النظريات البلاغية واللغوية، فقد دخلت هذه البلاغة في نقاش جدلي جاد مع تيار المذهبين السفسطائي والأفلاطوني

فما ملامح البلاغة الأرسطية وأبرزها؟

الحجاج بين أفلاطون والسفسطائيين: هو جدل اتضحت منه معالم الفلسفة الأفلاطونية، لقد جاء أفلاطون بعد سقراط ليقدم تصورا فلسفيا عقليا، لكنه تصور مثالي أعطى الأسبقية للفكر والعقل بينما المحسوس لا وجود له في فلسفته المفارقة لكل ما هو نسبي وغير حقيقي ولأفلاطون نسق فلسفي متكامل يضم تصورات متماسكة حول الوجود والمعرفة والقيم مثار ضد السفسطائيين وفند أغاليطهم.

والسفسطائيون حركة فلسفية برزت في ق5 قبل الميلاد تميز روادها بالكفاءة اللغوية البلاغية وبالخبرة الجدلية[8]، فقد لعبوا دورا كبيرا في تطوير البلاغة والحياة الفكرية في اليونان عامة فوقف ضدهم كل من أرسطو وأفلاطون، اهتم السفسطائيون ببنية كل من الكلمة والجملة وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخر[9] كما اهتموا إلى حد كبير ببلاغة القول، حيث توسلوا كل أساليب الحجاج قصد الإقناع والإذعان مما أدَّى الأمر بأفلاطون إلى نقدهم والتَّصدي لهم وأنَّ ما يقدمونه لا يعدو كونه نتائج ظنية قوامها

اللذة والهوى وهي أمور مضرَّة بالقيم والأخلاق. ومع هذا فقد كان للحجاج والبلاغة عند السفسطائيين عمق ونظرة منطقية، إذا للسفسطائيين نظر لتطور الخطاب ودوره في تحقيق الوجود.

الحجاج بين البلاغة الأرسطية والفلسفة الأفلاطونية

يعد أرسطو فيلسوفا موسوعيا شاملا، وفلسفته تنفتح على كل ضروب المعرفة، إذ يبحث في الطبيعة والميتافيزيقا والنفس وفن الخطابة، كما بحث في الجدل وما يتصل به من أقوال حجاجية ويعد كتابه (الخطابة) أقدم كتاب اهتم بالقناع وأدواته. يقول عبد الله صولة: ط إنَّ الجدل والخطابة قوّتان لإنتاج الحجج[10].

فهذا التلازم الثنائي المتمثل في الجدل والخطابة وفي هذا يقول أرسطو: "إن الخطابة فرع من الجدل وفرع من علم الاختلاف يمكن أن يدعى بحق علم السياسة"[11]، فأرسطو أسس فهمه للحجاج على منطلقات منطقية استدلالية لا تخلو من اعتبارات نفسية اجتماعية ومنها قصد رفض مثالية أستاذه أفلاطون ودعا إلى بلاغة يكون الحجاج عمادها حيث أنه لم ينظر إلى الحجاج نظرة سطحية بل شمولية تفاعلية مع مختلف حقول المعرفة الإنسانية.

علاقة الحجاج بالجدل:

أساس الحجاج عند **أرسطو** يتمثل في علاقة الحجاج بمجالين هما الخطابة والجدل، فقد أكَّد على وجود الحجاج في الخطابة كما في الجدل ؛ أي أن الخطابة تعتمد الحجاج، فالحجاج قاسم مشترك بين الخطابة والجدل. والحجاج فن الجدل يعتمد على المعايير العقلية الخالصة على خلاف الحجاج في الخطابة الذي يتم في الجانب العاطفي، فالجدل ذو مجال فكري خالص يكون بين شخصين، يحاول كل منهما إقناع صاحبه بوجهة نظر معينة، أما الحجاج الخطابي فمجاله توجيه الفعل وتثبت الاعتقاد أو صنع الاعتقاد فهو حجاج موجه

للغير[12] والواقع أن ارتباط بالحجاج الخطابي بالمغالطة والخداع هو الأمر الذي جعل الخطابة متهمة بنظر إليها كضرب من المغالطة تشوه الحقيقة وتزيف الواقع.

مفهوم الحجاج عند اللسانيين الغربيين:

أ/ مفهوم الحجاج عند برلمان:

إنّ الخطابة باعتبارها فن عبر الخطاب قد اتسع مجالها بعد ظهور الكتاب المعنون (مًصنَّف في الحجاج) لمؤلفيّه **برلمان وتيتيكاه** الذي شكَّل ظهوره سنة 1958 منطلقا جديدا في علم الخطابة، والذي مثل نظرة منطقية الحجاج، ويعتبر هذا المصنَّف اختراقا لمعنى البرهان والاستدلال الديكارتي.

يقدم **برلمان** تعريفا للحجاج بجعله مجموعة من الأساليب آو التقنيات التي تقوم في الخطاب لوظيفة وهي حمل المتلقي على الإذعان بما يُعرض عليه أو الزيادة في حجم الإذعان[13] وعليه فإن تصوره للحجاج يظل مختلف عن الخطابة والجدل ذلك بجمعه بين التأثير النظري والتأثير السلوكي العملي فهو خطابة جديدة بالفعل، أما غاية كل حجاج حسب بيرلمان وتيتيكاه فهي جعل العقول تسلم بما يطرح عليها من أفكار أو تزيد في حجم ذلك التسليم، فأقوى حجاج ما وفِّق في جعل شدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين[14]

فبرلمان ميز بين الإقناع والاقتناع، فالأول يكون من قبل الغير والثاني يكون من المرء من تلقاء نفسه، أي دون تدخل الغير، ففي هذه الحالة يكون قد اقنع نفسه بأفكاره الخاصة وفي حالة الإقناع فإنَّ الغير هم الذين يقنعونه، وهذا هو هدف الحجاج حسب ما نصَّ عليه برلمان/ كما عدَّ أيضا أنواعا عدة من الحجاج على أنها لا تعد حجاجا.

الحجاج عند مايير:

ينطلق **مايير** من الحقل الفلسفي الابستمولوجي فمصنفاته الكثيرة تدور في فلك الحجاج والبلاغة منها منطق اللغة والحجاج وكتاب أسئلة البلاغة فكل سؤال يتطلب حلا والحجاج عند **مايير** يتمثل في إثارة الأسئلة وهذا عنده هو الأساس الذي ينبني عليه الخطاب وهو يسعى لإقامة نظرية بلاغية أساسها فكرة التساؤل لأن الوصول إلى السؤال الجوهري يُعدُّ أهم خطوة في أي نظرية وأي موضوع فهو يرى أن التفكير ليس إلا مساءلة وكذا استخدام الكلام الذي يؤدي بالفكر إلى المساءلة[15] وهذا التصور يثير فكرة جديرة بالاهتمام وتتمثل في السؤال الحجاجي الذي يجب أن يحمل إشكالا فكريا يؤدي بالمخاطب للبحث عنه ويكون مصدر متعة له. فالحجاج عنده مرتبط ارتباطا وثيقا بالكلام. يقول في كتابه أسئلة البلاغة (question de la rethorique) أن الكلام وما يحويه يدفع إلى الحجاج وليس دور الحجاج سوى استغلال ما في الكلام من طاقة وثراء[16]؛ لأنَّ بواسطة الكلام نطرح اسئلة ونتلقى الأجوبة عن طريق الكلام ونستنتج انه لا وجود لحجاج خارج نطاق الكلام. وما تميز به **مايير** عن أستاذه **برلمان** انه عالج الحجاج في الحقل الفلسفي الابستمولوجي حيث قال: " اليوم يجب أن تكون الخطابة بما فيها من حجاج وبلاغة في خدمة الفلسفة لا خلاف في ذلك[17].

الحجاج عن ديكرو:

تحدَّث ديكرو عن الحجاج مختلفا عن الحجاج عند برلمان فهو يقوم على اللغة بالأساس بينما عرف برلمان الحجاج باعتباره مجموعة من الأساليب وتقنيات في الخطاب تكون شبه منطقيّة أو شكليَّة او رياضية والحجاج عند ديكرو كامن من حيث بنيته في اللغة ذاتها فالحجاج عنده انجاز لعمليتين هما عمل التصريح بالحجة من جهة وعمل الاستنتاج من جهة

أخرىٰ سواء أكانت النتيجة مصرحا بها أم مضمَّنة[18] فقد بيَّن أن الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتتابع علىٰ نحو دقيق وان المتكلم يجعل قولا ما حجة إذا اقنع بها المتلقي ذلك علىٰ نحو صريح أو بشكل ضمني وحسبه أن المتكلم قد يصرح بالنتيجة أو يخفيها فيستلزم علىٰ المتلقي استنتاجها من بنيتها اللغوية فقد حصر درس الحجاج في نطاق دراسة اللغة لا في البحث عما هو واقع خارجها لان وظيفة الحجاج تكمن في التوجيه.

فأعماله هي أإعمال تغلق النص ولا تتعامل مع خارجه وبعد هذا الكلام نقول إن مفهوم الحجاج قد أصَّل تأصيلا من قبل مدرستين هما البلجيكية والفرنسية، فالغربيون تمسكوا بالإرث الأرسطي تمسكا واضحا فنظرياتهم بعث للقديم في ثوب جديد ومسالة الحجاج عند الغربيين تختلف خصائصه عند العرب لان للعرب فكرهم الحجاجي الخاص المميز لثقافتهم ودينهم الإسلامي.

مراجع البحث وإحالاته:

1ـ ابن منظور: لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1990، مادة حجج.

2ـ المصدر نفسه، مادة حجج.

3ـ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، د.ط الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص، 32.

4ـ ابن فارس، مقاييس اللغة، تح، عبد السلام هارون، ج1، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991، مادة حجج

5ـ أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تح، عبد المجيد التركي/ ط2ن دار المغرب الإسلامي، المغرب، 1987، ص8

6ـ طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب 2000، ص 226.

7ـ الحواس المسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل أنموذجا م مجلة اللغة العربية،، جامعة الجزائر، ع، 12 ديسمبر 1997، ص، 330

8ـ سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،2008، ص224

9ـ الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 26.

10ـ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج1، جامعة منوية، تونس، 2001، ص21.

11ـ ارسطوطاليس، الخطابة، تح وتعليق، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979، ص، 30.

12ـ الحجاج في الشعر العربي الحديث من الجاهلية إلى ق2ه، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص، 18.

13 ـperlman et tyteca traite de Largumentation EDITION DE LUNIVERSITE DE BRUXELLES 5 em sdition1992 p11

14ـ نفس المصدر، ص، 52.

15 ـmichel mayer.de la problématologie .ohilosophpie.science et langage. bruxelles mardaga. 1986. p203.

16ـ المصدر السابق، ص، 143.

17ـ المصدر نفسه، ص، 142.

18 ـ auscombre et o. ducrot. Largumentation dans la langue. 1em edition bruxelles.mardaga.1983.p28.